كربلاء في القرن السادس عشر

كما عكسته رحلة مُطراقي زاده (٩٥٨هـ/١٥٥١م)

الأستاذ المتمرس الدكتور

طارق نافع الحمداني

جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية

الأستاذ الدكتور

صباح إبراهيم سعيد الشيخلي

جامعة بغداد / كلية الآداب - قسم التاريخ

Karbala، during the 16th century as reflected by Mutraqi Zada voyage

Prof Dr. Tariq N. al-Hamdan

University Baghdad- College of Education Ibn Rushed

Prof Dr. Sabah. I. Said

Arts Collage history section/ Baghdad University

Abstract

No city around the world witnessed a struggle on it as the city of Karbala, and this struggle was apparently religious between two great powers during the 16th century, and stretching the following centuries, and these were the Ottoman Empire and the safawid dynasty.

Other factors were not less important than the previous factor, and these were the political and economic factors.

The desire to extend the Ottoman influence in the east, and the rise of the safawid dynasty, was beyond the Ottoman-safawid struggle during the 16th century.

The economic factor was an important one for the struggle between the two states, can be strengthen their power.

But we must be remember that the religious factor was the most important of the others, because of its impact on peoples felling, therefore the Ottoman sultans, and the safawid rules, achieved many projects in the Iraqi holy cites, and especially in Karbala, for this purpose.

In this subject no contemporary sources were known. During the 16th century, therefore we depend upon the travel of Mutraqi Zada, who died in (958/1551) and its importance revealed from its translation from turlikh to Arabic language

الملخص

لم تشهد أي مدينة في العالم من صراع حولها، بقدر ما شهدته المدن العراقية، بغداد والنجف وكربلاء. وهذا الصراع وإن كان ظاهره دينياً، بين قوتين كبيرتين في القرن السادس عشر، وهما الدولتان العثمانية والصفوية، إلا أن العوامل أخرى لم تكن بأقل أهمية منه، وهي عوامل سياسية واقتصادية.

على أن الرغبة في مدّ نفوذ الدولة العثمانية نحوالشرق، على حساب الدولة الصفوية الناشئة، وهي التي كانت في طور التوسع أيضاً، كان عاملاً مهماً في حروب ونزاعات طويلة في القرن السادس عشر، وامتدت لقرون تالية أخرى.

ولم يكن العامل الاقتصادي بأقل أهمية من سابقيه من العوامل، فالاقتصاد، من زراعة وتجارة، كان مصدراً لتمويل العمليات العسكرية، وقوة الدولة المتصارعة.

بيدَ أن العامل الديني كان هوالمهُيمن لما له من أثر في نفوس الناس، فتسابق حكام هاتين القوتين على قيامهم بأعمال خيرية كثيرة في المدن المقدسة، لجذب الناس إليهم، فعمل كل منهم ما عمل لإيجاد الأنصار والمؤيدين.

على أننا يجب أن نتذكر بأن القرن السادس عشر في العراق هوأقل قرن في مصادره ومادته التاريخية ولذا كان لزاما علينا أن نجد مصادر جديدة، لدراسته عامة، وكربلاء بخاصة، فوقعت أنظارنا على كتاب رحله مُطراقي زاده (ت٩٥٨هـ/ ١٥٥١م)، ليكون المصدر الأساس في هذه الدراسة.

١ـ مدينة كربلاء ما قبل القرن السادس عشر

أصاب كربلاء ما أصابها من ضرّ وخير خلال القرون التي أعقبت سقوط بغداد ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م وما تلاها من عصور الاحتلال الأجنبي حتى القرن السادس عشر، وكان ما أصابها على أيدي القوى الأجنبية التي حكمت في هذه المدة، أوعلى يد القوى المحلية التي امتد نفوذها إلى كثير من المدن العراقية من جهة أخرى.

وكان من البديهي أن نتصور امتداد يد القوى الأجنبية إلى العتبات المقدسة في كربلاء والنجف، سواء بدوافع دينية، أولدوافع أخرى. فعلى سبيل المثال، قدر لكربلاء أن تنال جانباً من الخدمات الجليلة التي قدمها غازان خان للإسلام، وحبه لآل البيت، فقد أقدم هذا السلطان (٦٩٤-٧١٤هـ/ ١٢٩٤-١٣١٤م)، على حفر نهر سمّي (النهر الغازاني)، وقد تولى ذلك شمس الدين صواب الخادم السّكورجي وغرس الدولة[١].

بيد أن ما جاء في (كتاب الحوادث) كان مبتسراً، إلى أن سلّط (التاريخ الغياثي) الضوء على هذا العمل فقال:

«ومن آثاره: نهر أخرجه من الفرات ما بين دجلة وبغداد، وعمل عليه كثيراً من العمارة وسمي بالنهر الغازاني، وشق من الفرات النهر إلى مشهد الشيخ أبي الوفا»[٢].

غير أن القرون التالية كانت قروناً عجافاً بالنسبة للمدينتين المقدستين (كربلاء والنجف)، سواء على يد القوى الأجنبية أوالمحلية. فالحروب التي دارت بين الجلائريين والتيموريين، ومن ثم بين القرا قوينلو(١٤١١-١٤٦٨م) والأق قوينلو(١٤٦٨-١٥٠٨) والمشعشعيين خلال القرن الخامس عشر، أدت إلى كثير من أعمال التخريب والنهب والحرق الذي أصاب المدن العراقية عامة، والمدينتين المقدستين (النجف وكربلاء) بخاصة.

انعكست آثار الصراع بين أمراء القرقوينلومن جهة، وبينهم وبين المشعشعيين من جهة أخرى على كربلاء أوالنجف. فقد استطاع محمد بن فلاح المشعشع[٣]، الذي انتزع الزعامة من والده أن يسيطر على المدن العراقية الواحدة تلوالأخرى، فكان نصيب كربلاء والنجف كبيراً من هجمات المشعشعيين عليهما، فقد سيطروا على معظم المناطق الجنوبية والوسطى من العراق، التي أصبحت خارج نطاق السيطرة القراقوينلية[٤].

وفي هذا الصدد يجدر بنا أن نتذكر الغياثي، الذي يعدّ من أهم المصادر التي تحدثت عن تاريخ العراق ما بين القرن (١٣-١٦م)، ذلك لأنه شهد حوادث القرن الخامس عشر بالذات، سواء في العراق أوفي بلاد الشام، إذ يقول:

«في عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٤م دخل السلطان علي الحلة ونقل أموال الحلة والمشهدين إلى البصرة وأحرق الحلة وأخربها، وقتل من تبقى فيها من الناس ومكث فيها ثمانية عشر يوماً.

ورحل يوم الأحد ٢٣ ذي القعدة إلى المشهد الغروي والحائري ففتحوا له الأبواب ودخل فأخذ ما تبقى من القناديل والسيوف ورونق المشاهد جميعها

من الطوس والأعتاب والفضة والستور والزوالي وغير ذلك. ودخل بالفرس إلى داخل الضريح وأمر بكسر الصندوق وإحراقه، فكسر وأحرق وقتل أهل المشهدين من السادات وغيرهم»[٥].

على أن للآراء التي قدمها الغياثي أهمية كبيرة في صدد ما نحن فيه، فقد عانت كربلاء والنجف الكثير من جراء الصراع بين القراقوينلووالمشعشعيين، إذ شهدت المدينتان عمليات القتل والنهب والتجويع، بفعل عمليات الهجمات والهجمات المضادة للقوتين المتصارعتين[٦].

لم يقتصر الصراع بين القراقوينلو والمشعشعيين على مناطق النفوذ في المدن العراقية، وإنما حاول الطرفان إظهار تعلقهما بأهل البيت عليهم السلام كسباً للناس، فالمشعشعيون –كما هومعروف– ادعى بعض زعمائهم المهدوية، وإن عملوا عكس مبادئ أهل البيت عليهم السلام فهاجموا النجف وكربلاء، وتعرضوا للأضرحة المقدسة نهباً وحرقاً وتهديماً، وقتل اتباع محمد بن فلاح السكان بمن فيهم السادة – القائمين عليها. وتجاه ذلك، يقال ان جهانشاه قراقوينلوأمر رعاياه بالتشيع، وإنه ضرب النقود بأسماء بعض الأئمة[٧].

ومهما يكن من أمر، فإن تاريخ العراق بعامة، والمدن المقدسة في كربلاء والنجف بخاصة، لم تكن بعيدة عن الصراعات السياسية والدينية حتى مطلع القرن السادس عشر الميلادي، حيث سيبدأ صراع جديد بين قوى أخرى، وللأسباب ذاتها.

٢ـ كربلاء في القرن السادس عشر الميلادي

حدثت تطورات مهمة في الشرق الإسلامي في القرن السادس عشر، كان أبرزها ظهور الدولة الصفوية في إيران (عام ١٥٠١م)، وتوقف الفتوحات العثمانية في أوربا وتوجهها نحوالشرق، وقد كان لهذين الحدثين – كما سنرى– أثر كبير على المنطقة بأكملها، وعلى العراق والأماكن المقدسة فيه على وجه الخصوص.

ارتبط قيام الدولة الصفوية في إيران، بعوامل دينية وسياسية واقتصادية، فمن حيث العوامل الدينية فإن المذهب الشيعي الإثني عشرة، كان الأساس في قيام هذه الدولة، وقد أصبح المذهب الرسمي لها، وقد أصبحت إيران المدافع الأول عن هذا المذهب، ومسؤولة عن انتشاره، لذا فإن السيطرة على كربلاء والنجف، هي مما يعطي الشاه إسماعيل[٨] وخلفاءه دفعاً أكبر.

ومن حيث الدوافع السياسية فإن سيطرة الشاه إسماعيل على العراق والأماكن المقدسة، فإنها توسع دائرة نفوذه إلى مناطق أوسع، لاسيما أن بقايا الآق قوينلوالذين كانوا يحكمون هذه البلاد كانوا متشرذمين، وفي أقصى حالات ضعفهم[٩].

ولم يكن الدافع الاقتصادي بعيداً عن هذين العاملين، إذا أخذنا بنظر الاعتبار خصب العراق وثرواته الزراعية، ومرور تجارة الخليج العربي عبر أراضيه، وأن السيطرة عليه هومما يؤمن حركة التجارة الإيرانية، ويبعد المنافسين لها[١٠].

تضافرت العوامل أعلاه في تحرك الشاه إسماعيل نحوالعراق عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م، الذي لم يجد عائقاً كبيراً في اجتياحه لاسيما وان بقايا الآق قوينلوفي هذه البلاد كانوا أعجز من الوقوف بوجهه، ولم ينفعهم استنجادهم بالقوى الأخرى مثل إمارة ذي القدر أوالدولة المملوكية في مصر، زمن السلطان قانصوه الغوري[١١].

نتيجة لهذه الظروف، سيطر الشاه إسماعيل على بغداد عام ١٥٠٨م، وسار مسرعاً لزيارة الأماكن المقدسة فيها، ثم زار العتبات المقدسة في النجف وكربلاء، وزيارة الأضرحة هناك[١٢]. ففي النجف، جدد نهر عطا مُلك الجويني، وأجرى فيه الماء وسماه باسمه «نهر الشاه»، وأوقفه على المشهدين الشريفين[١٣]. أما في كربلاء، واستناداً إلى الوثائق العثمانية، «فقد أمر بتزيين الضريح، ووضع به اثني عشر قنديلاً من الذهب»[١٤].

على أن السيطرة الصفوية على العراق، وعلاقاتها مع القوى المناوئة للعثمانيين مثل المماليك، قد وسع من دائرة الخوف التي حملها العثمانيون تجاه الصفويين، بحيث أن السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠)، قد دشن سياسة التحول من الغرب إلى الشرق، وكانت الدولة الصفوية أولى اهتماماته، فدخل معها في معركة (جالديران) عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤، وأوقع بها الهزيمة[١٥].

لا يختلف السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦)، عن سلفه السلطان سليم من التخوف من مخاطر الدولة الصفوية على الدولة العثمانية وضرورة مواجهتها. ومما شجع على ذلك عدم استقرار الأوضاع في العراق، إذ خلع ذوالفقار، حاكم بغداد، عام ١٥٢٩ تبعيته للصفويين، وأعلن ولاءه للعثمانيين. وعليه قرر الشاه طهماسب (١٥٢٤-١٥٧٦) استعادة السيطرة الصفوية على بغداد، وتحقق له ذلك فعلاً عام ٩٣٦هـ/ ١٥٣٠م، إذ تمكن من مهاجمة بغداد والاستيلاء عليها بعد مقتل (ذي الفقار)[١٦].

لم تتحسن العلاقات العثمانية- الصفوية بعد معركة جالديران (عام ١٥٢٠)، وتبنى السلطان سليمان سياسة مواجهة الصفويين سواء على أراضيهم، أوعلى الأراضي العراقية، لاسيما وان الأوضاع في بغداد كانت مما يثير العثمانيين بعد حركة ذي الفقار عام ١٥٢٩.

استطاعت القوات العثمانية بقيادة السلطان سليمان من اجتياح الأراضي الإيرانية والوصول إلى العاصمة تبرير عام ١٥٣٣، ولم يكد السلطان سليمان ينتهي من ذلك حتى وجه أنظاره صوب العراق. وقد تعلق، كما يبدو- بمفاتيح مدينة بغداد التي أرسلها ذوالفقار إليه عام ١٥٢٩، وأن سيطرة الشاه طهماسب الأول على المدينة إنما هومن باب التحدي[١٧].

ومهما يكن الأمر، فقد بدأت الاستعدادات العثمانية منذ خريف عام ١٥٣٣، وكان هدفها التالي هوبغداد، التي كان يحكمها محمد خان تكلو، حاكم المدينة من قبل الشاه طهماسب.

استطاعت القوات العثمانية القادمة من الأراضي الإيرانية، أوتلك القادمة من حلب أن تأخذ طريقها إلى بغداد، أما محمد خان تكلو، فعلى الرغم من المناورات التي أبداها في المدينة، واتصالاته بالشاه، وبالسلطان سليمان، إلا أن موقفه الضعيف قد دعاه إلى مغادرة المدينة سراً، مما أتاح للقوات العثمانية بقيادة الصدر

الأعظم إبراهيم باشا من دخول بغداد، وبعد يومين دخلها السلطان سليمان وضمها إلى الممالك العثمانية، وكذلك هوالشأن بالنسبة لعدد من المدن العراقية الأخرى[١٨].

مكث السلطان سليمان في بغداد مدة ستة أشهر، زار خلالها عـدداً من المـدن العراقية، إلا أنه أظهر اهتماماً أكبر بمدينة بغداد، لأن فيها كثيراً من المراقد الدينية كضريح الشيخ عبد القادر الكيلاني، وضريح أبي حنيفة النعمان، فضلاً عن مرقدي الإمام موسى الكاظم ومحمد الجواد، وأتم الأبنية التي بدأها الشاه إسماعيل وتركها قبل إنجازها[١٩].

ولم يقل اهتمامه بالعتبات المقدسة في كربلاء والنجف، عما أبداه بتلك القائمة في بغداد. فاستناداً إلى مرتضى أفندي:

«ثم سافر (السلطان) أيضاً إلى كربلاء والنجف الأشرف، وحضي بالمثول بين يدي حضرة صاحب الشهداء، وأمر بشق نهر كبير من الفرات وأوصله إلى كربلاء وجعلها كالفردوس، الأمـر الـذي زاد في محصولاتها وأثـمار أشجارها وأنعم على الخَدَمة والسكان»[٢٠].

وبعد أن حظي السلطان سليمان بزيارة قبر الإمام علي عليه السلام، قفل راجعاً إلى بغداد. وقد أرسى خلال مكوثه في بغداد أسس التنظيمات الإدارية في العراق وفقاً لنظام الولايات، حيث قسم العراق إلى أربع ولايات هي بغداد والبصرة والموصل وشهرزور[٢١].

جعلت ولايـة بغداد الولاية المركزية للولايات الثلاث الأخرى التي كان ولاتها يعينون من الحكومة العثمانية في استنبول بطلب من والي بغداد، وقد وردت في كتابات جـلال زادة، الـذي كـان يتولى منصب النيشانجيلك (صاحب التوقيع أوالخاتم) في عهد السلطان سليمان القانوني، والذي كان من المرافقين للسلطان سليمان أثناء غزوبغداد، بأن كربلاء كانت سنجقاً تابعاً إلى ولاية بغداد واسمها (مشهد حضرة الإمام الحسين)[٢٢].

٣ـ كربلاء في رحلة مُطراقي زاده

تفتقر المكتبة العراقية إلى كثير من المصادر التركية التي تخص تاريخ العراق بعامة، ومدنه المقدسة بخاصة، إبان القرن السادس عشر. والمادة التاريخية عن الأخيرة مبعثرة في مصادر تاريخية متفرقة في المصادر العثمانية أوالفارسية وحتى في المصادر والرحلات الأوربية على مرّ العصور.

أما المصادر العربية فمن المتعذر علينا أن نجد مصدراً عربياً واحداً تناول أحداث القرن السادس عـشر، ومـن هنا تكون المصادر الأجنبية، بخاصة العثمانية، ما يمكن أن نعول عليه إلى حد ما في دراسة تاريخ العراق ومدنه المقدسة آنذاك.

ظلَّ كثير من المصادر العثمانية بعيداً عن أيدي الباحثين المتخصصين لقرون عدة، حتى قدر لبعض العارفين باللغة التركية القديمة أن ينقلوا هذه المصادر إلى العربية، ومن بينها كتاب (كلشن خلفا) لمؤلفه نظمي زاده مرتضى أفندي (المتوفى ١١٣٦هـ/ ١٧٢٣م). ومع أن الكتاب قد ألف ما بعد القرن السادس عشر، إلا أن أهميته تتأتى في كونه قد قدم مادة تاريخية موثوقة عن العراق ومدنه، وفي ذلك يقول أحد الباحثين:

«قدّم عرضاً متّسقاً لتاريخ بغداد، على حسب توالي الحاكمين، مستعرضاً على ما مرّ على المدينة من حوادث في سنوات حكمهم، وما خاضوه من حروب، وشيدوه من آثار، وما قاموا به من أعمال، وبعضها في خارج المدينة ذاتها»[٢٣].

كان كتاب (كلشن خلفا) المنبع الوحيد لكثير من الكتابات التاريخية المتعلقة ببغداد في القرن السادس عشر، وهذا ما أشار إليه لونكريك[٢٤]. وعليه، فقد ظل هذا الكتاب مما يعول عليه الباحثون، حتى صدرت الترجمة العربية لرحلة مُطراقي زاده، التي اختصت بتاريخ العراق بعد دخول العثمانيين إليه في عام ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م.

تمثل (رحلة مطراقي زاده) مصدراً رئيساً من مصادر دراسة تاريخ العراق الحديث ومدنه، وبالذات مدينة كربلاء المقدسة، فمن هوصاحب هذه الرحلة، وما قيمة المعلومات التي تحملها رحلته؟

أ- مطراقي زاده

هونصوح أفندي السلاحي، ابن عبد الله قره كوز، الشهير بمطراقي زاده، مؤرخ ورحالة ورياضي عثماني، أصله من البوسنة التي كانت جزءاً من الدولة العثمانية.

كان ماهراً في ألعاب الفروسية والأسلحة فاكتسب لقب (المُطراقي)، وهوالدرع المغلف بالجلد الذي يستخدمه الفرسان في أثناء القتال[٢٥].

تنوعت مواهب مُطراقي زاده فهومؤرخ مُتقن، وفارس ماهر، وجغرافي واسع المعرفة، وشاعر بليغ، ومترجم ضليع، ومهندس عسكري بارع، ورياضي مصنف، وله في معظم هذه الجوانب مؤلفات قيمة، علاوة على امتلاكه لثقافة تاريخية وجغرافية واسعة اسهمت في ضمه كاتباً في قلم الديوان السلطاني الكبير[٢٦].

صاحب السلطان سليم الأول في حملته العسكرية، على دولة المماليك في بلاد الشام ومصر عام (٩٢٦-٩٢٧هـ/ ١٥١٦-١٥١٧)، كما رافق السلطان سليمان القانوني في معظم حملاته العسكرية في أوربا وفي إيران. وظهرت براعته في التأليف والرسم حتى كلف بمهمة تسجيل وقائع الحملات العسكرية التي شارك فيها السلطان[٢٧].

والكتاب مزود بصور ملونة للمدن والقصبات التي مرّ بها الجيش العثماني أوفتحها، وكذلك المدن التي زارها السلطان سليمان فقام بالكتابة عنها، ورسم المشاهد التي رآها. يقول العزاوي[٢٨] في ذلك:

«والكتاب فيه الواح مهمة، وصفحات في تصاوير البلدان العراقية، ومراقدها المباركة مما لم يبق له اليوم ذكر، أورسم إلا قليلاً».

يأتي كتاب مطراقي زاده، المعروف بـ(منازل سفر العراقيين للسلطان سليمان خان)، بمثابة سجل مفصل لوقائع حملة السلطان سليمان القانوني على الدولة الصفوية والعراق في عامي ٩٤٠-٩٤١هـ/ ١٥٣٣-١٥٣٤م.

والواضح من أهداف الحملة أنها تتألف من مرحلتين، أولاهما ضرب الدولة الصفوية وتدميرها، وثانيهما التقدم في محورين، جنوبي لاحتلال بغداد، وشرقي للتوغل في خراسان وتركستان. وقد أسفر

التحرك نحوالمحور الجنوبي عن احتلال بغداد وبقية المدن العراقية، فأكمل السلطان سليمان ما بدأه السلطان سليم الأول باحتلال ولاية الموصل[٢٩].

تلك هي الرحلة التي كتبها مطراقي زاده، بصحبة السلطان سليمان القانوني، والتي بدأت من القسطنطينية (استنبول)، مروراً بكوتاهية، فقونية فوان، في الأراضي العثمانية، ثم تبريز فهمدان، فقصر شيرين، فبغداد، وصولاً إلى الحلة فالنجف، فكربلاء. وفي هذه الحملة تم إنهاء الحكم الصفوي في العراق (١٥٠٨-١٥٣٤م)، ودخول البلد تحت الحكم العثماني الأول (١٥٣٤-١٦٢٣)[٣٠].

على أن ما يدفعنا لاتخاذ رحلة مطراقي زاده مصدراً لدراسة تاريخ كربلاء، أنها المصدر الوحيد الذي تناول تاريخ العراق ومدنه في القرن السادس عشر. ومما يزيد من أهميتها الوصف الدقيق للمدن والقرى التي مرّ بها مؤلفنا، وهي معززة بالصور الملونة الخلابة البالغة الاتقان، فضلاً عن الصور التي خصصها للأضرحة في بغداد وكربلاء والنجف[٣١].

والرحلة إلى كربلاء بدأت في نهاية شهر جُمادى الأولى من عام ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م، إذ ترك السلطان سليمان بغداد نحوالحلة فكربلاء. وقد اثبت المطراقي معلومات مهمة عن هاتين المدينتين وما فيهما من أضرحة ومراقد، بوصفه شاهد عيان لها، إذ يقول:

«وفي مدينة (الحلة) المحروسة زار السلطان مقام المنتظر وغاية المختبر خليفة الرحمن (محمد المهدي صاحب الزمان)[٣٢] ومرضي الأوصاف والشمائل حضرة الشيخ أبي الفضائل»[٣٣].

ولكن مطراقي زاده كان أكثر تفصيلاً في وصفه لكربلاء، وأضرحتها المقدسة، إذ أورد الآتي:

وفي أرض (الكرب والبلاء)[٣٤] حيث يرقد حضرة صاحب القبة الخضراء في الجنة، وخاتم الخلفاء الراشدين عند أهل السنة، والصابر على البلاء والمحنة الشهيد في أرض كربلاء، الإمام المقتدى وابن المرتضى (أبوعبد الله الحسين)، وكذلك مرقد سيد المجتهدين وسند المتعبدين (علي بن الحسين)[٣٥].

وتابع مؤلفنا ذكر الأئمة في كربلاء فيقول:

«واللسان الناطق والأصل السابق، مقام الإمام (جعفر بن محمد الصادق)[٣٦]، وجميل الذات وكريم الصفات سيد الشهداء وسعد اللباس والمحمود عند الله والناس، ابن الإمام علي حضرة (العباس)[٣٧] والمعتصم بعناية الله، الملك العاصم وسلطان الشهداء، وحضرة (قاسم ابن الإمام المرتجى وسبط المصطفى وابن المرتضى والكرم والمنن (ابو محمد الحسن)»[٣٨].

ومما ذكره المطراقي أيضاً:

«والنورين الأزهرين الأنورين، درتي الصدفة النبوية ونجمتي بحر الفتوة السيدين الشهيدين والمقتولين المظلومين (علي الأكبر وعلى الأصغر)[٣٩]، ولدي (أبي عبد الله الحسين)، وبر جبل المحسن المدفون في صحراء (كربلاء)، أكرم أرباب السعد وأفخر أصحاب الشهد حضرة (حر الشهيد)[٤٠].

وعليه ومن قراءة النصوص الواردة عن كربلاء، نجد سمة التمجيد والتعظيم الذي أضفاه مطراقي على الأئمة من آل البيت المدفونين في هذه المدينة المقدسة.

لم يكتف مطراقي بإيراد الأئمة في كربلاء، وإنما رسم صوراً مستقلة لكل ضريح من تلك الأضرحة، رغبة منه في التبرك بأضرحتهم.

ويشير الأمر في الوقت نفسه، إلى أهمية قدسية مدينة كربلاء، نظراً لما لهذه القدسية من تأثير في نفوس المسلمين الشيعة من جهة، بل وفي طبيعة الصراع العثماني-الصفوي من جهة أخرى.

ومما يجدر بنا أن نتذكر، أن الرحلة هي أشبه ما تكون بالتقرير الرسمي الذي كتبه مُطراقي زاده لتوثيق وقائعها ابتداءاً من خروجها من الأراضي العثمانية مروراً بالأراضي الإيرانية وانتهاءاً بالأراضي العراقية. ولهذا فأنها لم تتطرق كثيراً إلى أحداث أخرى مهمة قد تكون في نظر القارئ أهم من سرد وقائع سير الحملة نفسها.

على أن ما يأخذ على رحلة مطراقي زاده، أنه لم يذكر الأعمال الجليلة التي قام بها السلطان سليمان عند وصوله إلى كربلاء كشقه نهر السليمانية (أوالحسينية)، ولا إلى الاكرام والاحسان الكثير الذي خص به القائمين على الأضرحة الموجودة في هذه المدينة، على عكس ما فعله مرتضى أفندي الذي نوه به بشكل واضح[٤١].

على أن تغاضي مُطراقي زادة عن ذكر هذه الأمور قد يكون نابعاً من إدراكه أن مثل هذه الأمور هي واجب مفروض على السلطان، ولا يحتاج الأمر إلى ذكرها.

وعلاوة على ذلك، فإنه لم يشر إلى الشواخص الأخرى الماثلة في ذلك العهد في كربلاء، كالمدارس الدينية والخانات والأسواق، أوإلى طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية لتلك المدينة المقدسة. وفوق ذلك كله، لم يتطرق مؤلفنا إلى موقف أهالي كربلاء من زيارة السلطان سليمان لها، علماً بأن هذه الزيارة قد جاءت لإظهار التودد إلى سكان المدينة وأضرحتها المقدسة.

على أن فحوى ما توصلت إليه الدراسة أن مطراقي زاده قد كتب ما أثار انتباهه من أعمال السلطان سليمان ذات الصفحة الدينية عند زيارته لكربلاء، ولكنه لم يكتب عن أمور أخرى كثيرة، ما تزال معرفتنا بها قليلة.

الهوامش والمصادر

(١) لابن الفوطي، كتاب الحوادث لمؤلف من القرن الثامن الهجري، وهوالكتاب المسمى وهماً بالحوادث الجامعة والتجارب النافعة والمنسوب حققه وضبط نصه بشار عواد معروف وعماد عبد السلام رؤوف، انتشارات رشيد، قم، ط١، ١٣٨٣/ ١٣٢٤، ص٥٣٨-٥٣٩.

(٢) الغياثي عبد الله بن فتح الله البغدادي (المعروف)، تاريخ الدول الإسلامية في الشرق، دراسة وتحقيق: طارق نافع الحمداني، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٠، ص٥٥.

(٣) يحتاج ان يشار الى مدة حكم المشعشعيين في الحوزة منذ أن ظهر أول سلاطينهم محمد بن فلاح الموسوي الواسطي ت٨٦٦هـ/ ١٤٦١م تلميذ العلامة (ابن فهد الحلي) ت٨٤١هـ/ ١٤٣٤م.

(٤) نوري عبد الحميد العاني، العراق في القرن الخامس عشر الميلادي، دار الرافدين، بيروت-لبنان، ط١، ٢٠١٤، ص١٠٠-١٠١.

(٥) الغياثي، المصدر السابق، ص٣٣٦-٣٣٧.

(٦) حول هذا الصراع ينظر: قداوي علاء محمود، تاريخ العراق في عهدي القره قوينلووالاق قوينلو(٨١٤-٩١٤هـ/ ١٤١١-١٥٠٨م)، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، ص٩٩، ١١٤.

(٧) العاني، المصدر السابق، ص١٤٠.

(٨) الشاه إسماعيل الصفوي (١٤٨٧-١٥٢٤): هومؤسس الدولة الصفوية، وقد استطاع خلال مدة حكمه هذه أن يقضي على الأسر الحاكمة في بلاد إيران والعراق، ويبسط نفوذه عليها. محمد سهيل طقوش، تاريخ الدولة الصفوية (في إيران)، دار النفائس، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص٥٢-٥٨.

(٩) نظمي زاده مرتضى أفندي، كلشن خلفا، نقله إلى العربية موسى كاظم نورس، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٧١، ص١٧٨-١٧٩، ص١٨١-١٨٢.

(١٠) طقوش، تاريخ الدولة الصفوية، ص٥٩-٦٠. وللمؤلف نفسه، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، دار النفائس، بيروت- لبنان، ط٢، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص١٥٤-١٥٥.

(١١) طقوش، تاريخ العثمانيين، ص١٥٥.

(١٢) مرتضى أفندي، المصدر السابق، ص١٨٣.

(١٣) المصدر نفسه: ينظر أيضاً: ستيفن هيمسلي لونكريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، نقله إلى العربية: جعفر الخياط، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨، ص٣٢.

(١٤) ديلك قايا، كربلاء في الأرشيف العثماني: دراسة وثائقية (١٨٤٠-١٨٧٦)، ترجمه عن التركية حازم سعيد منتصر ومصطفى زهران، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٨م/ ١٤٢٨م، ص٢٦.

(١٥) مرتضى أفندي، المصدر السابق، ص١٨٥؛ طقوش، تاريخ العثمانيين، ص١٥٧-١٦١.

(١٦) مرتضى أفندي، المصدر السابق، ص١٨٦-١٨٨؛ ينظر أيضاً: لونكريك، المصدر السابق، ص٣٤-٣٥.

(١٧) طقوش، تاريخ الدولة الصفوية، ص٩٧.

(١٨) مرتضى أفندي، المصدر السابق، ص١٩٩-٢٠٠، كما أورد لونكريك، المصدر السابق، تفصيلات كثيرة حول هذه التحركات، ص٣٦-٣٧.

(١٩) مرتضى أفندي، المصدر السابق، ص١٩٩-٢٠٠، حيث دون هذه الحوادث بتفصيل.

(٢٠) المصدر نفسه، ص٢٠٠.

(٢١) نيقولاي أيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية ١٥١٦-١٥٧٤، نقله إلى العربية يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٤، ص١١٠-١١١.

(٢٢) نقلاً عن: حيدر صبري شاكر الخيقاني، تاريخ كربلاء في العهد العثماني: دراسة في سياسة الدولة العثمانية تجاه أهم الأحداث في مدينة كربلاء (١٥٣٤-١٩١٧)، دار السياب، بغداد، ط١، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، ص٣٢.

(٢٣) عماد عبد السلام رؤوف، التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، دار الوراق للنشر المحدودة، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٩، ص٣٣.

(٢٤) لونكريك، المصدر السابق، ص٣٥.

(٢٥) رحلة مُطراقي زاده، لنصوع السلاحي الشهير بمطراقي زاده (توفى بعد ٩٥٨هـ)، ترجمة صبحي ناظم توفيق، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، منشورات المجمع الثقافي، أبوظبي الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٣، ص٥؛ ولمعلومات أخرى عن مُطراقي زاده ينظر: عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين- الجزء الرابع- العهد العثماني الأول (٩٤١هـ-١٥٣٤م/ ١٠٤٨هـ-١٦٣٨م)، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، ١٣٦٩هـ-١٩٤٩م، ص٧.

(٢٦) رحلة مطراقي زاده، ص٥-٦؛ ثريا فاروقي، الدولة

العثمانية والعالم المحيط بها، ترجمة حاتم الطحاوي، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٨، ص٣١٣.

(٢٧) رحلة مطراقي زاده، ص٥-٦.

(٢٨) عباس العزاوي، المصدر السابق، ج٤، ص٦.

(٢٩) رحلة مطراقي زاده، ص٢٢؛ وتعليق المحقق هامش رقم (٢).

(٣٠) السيد عبد الصاحب ناصر آل نصر الله، كربلاء في أدب الرحلات، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص٥٩.

(٣١) رحلة مطراقي زاده، ٩-١١، والملاحظ أننا لا نمتلك مصدراً آخر يسد النقص في تاريخ العراق في القرن السادس عشر، الا كتاب (كلشن خلفا) لمؤله نظمي زاده مرتضى أفندي، الذي اعتمدنا عليه في رسم صورة العراق آنذاك.

(٣٢) أشير إلى هذا المقام منذ القرن ٨هـ/ ١٤م، وعرف في العهود المتأخرة، بمقام الغيبة. رحلة مطراقي زاده، (المحقق)، ص٩٥.

(٣٣) ويقصد به قبر الشيخ أبي الفضائل جمال الدين أحمد بن سعد الدين موسى بن جعفر، ابن طاووس الحسني، العالم الفقيه المتوفى سنة ٦٧٣هـ/ ١٢٧٥م. رحلة مطراقي زاده، ص٩٥.

(٣٤) ويوردها المطراقي في مكان آخر باسم (أرض المحنة والبلاء، صحراء كربلاء) الرحلة، ص٢٧. وقد اختلف المؤرخون والباحثون في أصل التسمية، وفيما إذا كانت قديمة أم أنها تعود إلى العهود الإسلامية. ينظر: عبد الوهاب عبد الرزاق آل الوهاب، تاريخ كربلاء، مجلة الاعتدال، العدد الأول، السنة الأولى، شوال ١٣٥١هـ/ شباط١٩٣٣، ص١٠١-١٠٣، ١٥٧-١٥٨.

(٣٥) لعل المقصود به علي الأكبر الشهيد والمدفون في موضع قبر الإمام الحسين عليه السلام، لأن الإمام زين العابدين مدفون في المدينة المنورة. آل نصر الله، المصدر السابق، ص٦.

(٣٦) يقع مقام الإمام جعفر الصادق عليه السلام في أرض الجعفريات، وفي المنطقة المسماة حالياً بـ(الهيابي). عبد الحسين الكليدار آل طعمة، بغية النبلاء في تاريخ كربلاء، مطبعة الرشاد، بغداد، ١٩٦٦، ص٨٢.

(٣٧) استشهد العباس بن علي بن أبي طالب، مع أخيه الحسين عليهما السلام في واقعة الطف سنة ٦١هـ، ويقع قبره على مسافة ٣٠٠ متر شمال شرقي قبر الإمام الحسين. رحلة مطراقي زاده، ص٩٦ (الهامش).

(٣٨) هو القاسم بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، خرج لنصرة عمه الإمام الحسين عليه السلام، فاستشهد معه في واقعة الطف.

(٣٩) علي الأكبر هو أول من استشهد من آل أبي طالب في واقعة الطف عام ٦١هـ، ودفن عند رجلي أبيه، أما علي الأصغر فهو الإمام زين العابدين المشار إليه أعلاه، والمقصود بولد الإمام الحسين الثاني فهو عبد الله الرضيع المدفون بجنب علي الأكبر عند رجلي الإمام الحسين وليس علي الأصغر، كما أشار مطراقي. ناصر آل نصر الله، المصدر السابق، ص٦٠.

(٤٠) الحر بن يزيد الرياحي التميمي، استشهد مع الإمام الحسين عليه السلام في حادثة الطف، ودفن في موضع يبعد نحو ثلاثة أميال عن غربي كربلاء. سلمان هادي طعمه، تراث كربلاء، بغداد، ط١، ٢٠١٣، ص١١٨.

(٤١) ينظر: كلشن خلفا، ص٢٠٠-٢٠١.